

# أغنية ..

## قصته فيتنامية بقلم نجوين فان نجي

هبط علينا الليل ، كما لو ألقى أحد على الغابة بعباءة سوداء هائلة .. أحسست ببرودة ، وارتجفت .

انبعثت من ولاعتي بضغ شرارات قليلة ، وبعد وقت جد طويل أصبحت لدينا شعلة في حجم حبة الذرة .. خفتت وهددتنا بأن نخبو .. فأحاطت بها يدان كبيرتان صنعت ستارا حول هذا الفانوس البائس .. لم يتحدث أحد .. كانت كل الأذهان متجهة لهذه الشعلة الصغيرة التي يمكن أن نخبو في أية لحظة .. وخرير جدول الماء عند سفح الجبل يصل الى أسماعنا بوضوح .

وانتشرت الشعلة الى غصن جاف .. ثم السى أفضان أخرى ، وفي لحظة أصبحت كومة الخشب الجافة نهب اللهب ، مضيئة وجوه المحيطين بها .

كنا في مجموعنا خمسة ، بما فينا مسافران جديان انضمنا الى جماعتي الكشفية بمحض المصادفة .

وفي هذا الصباح ، حينما تسلفنا طريق « يوي » ، لمنا شيخ رأس ذي شعر أسود ، و « بلوزة » رمادية فاتحة تحيط بجسده نحيل مشوق ، يبدو بين حين وآخر وسط الخضرة .. كنا متعبين .. ولكن صورة هذا الشيخ زودتنا بالشجاعة .. فقد سرنا خمسة أيام عبر الغابة دون أن نلجج كأننا حيا .

لم تكن هذه الممرضة جميلة .. وجهها نحيل .. ملامحها شاحبة .. نظرتها غريبة لا أستطيع وصفها .. عيناهما غائرتان تضويان سوادا . كل ما أعرفه انني حينما التقت عيناي بعينيها لأول وهلة أحسست برجفة ، ولم أشأ النظر إليها مرة أخرى ، وظننت أول الامر انها خصتني وحدي بهذه النظرة الغريبة ، لكنني تأكدت فيما بعد انها تحمق هكذا في زميلي الآخرين ، وتعجبت .. اذا كانت هذه نظراتها العادية .. فكيف تكون عيناهما حينما تحمق في حدة !؟

كان في استطاعتي أن أرى ونحن نعبر جدول ماء يطفو عبر أشجار « البامبو » جنديا وحيدا في سترة رسمية بنية اللون .. جالسا على مقعد حجري .. ينظر الى الماء ويدندن ، مصطحبا قيثارة قديمة مشققة .. تساقط طلاؤها . ولم يلحظ وجودنا رغم اننا تقدمنا الى منتصف الجدول ، وفجأة صاح « تران » أكبر أعضاء جماعتنا الكشفية سنا : توان .. ثم قدمه الينا .

- الزميل توان .. من فرقة الرقص والفناء .. وهو مؤلف « الكشاف » التي كنا غالبا ما نغنيها في الايام الاخيرة . وكان من دواعي سعادتي أن اصافح هذا الموسيقي الشاب الذي عرفته اسما ، ولم تستح لي الفرصة كي أراه . فالتقط قيثاراه وانضم لجماعتنا ، وقد ألقته بسرعة . وكان قد ذهب الى الجبهة مرحبا منشرح القلب .. كما يذهب الآخرون الى رحلة سعيدة .

ولا شك انه لم يكن قد أفاق بعد من أحلامه التي قطعناها عليه .. فقد بدأ في أول الامر يصفر ويدندن أثناء السير ، ثم أخذ يضحك ويتحدث بمرح ..

وكان واضحا انه لم يبد اهتماما بالمرضة . ورغم ذلك .. أفصحت عينا المرأة عن فرحها ، وارتعشت شفتاها بمرح ، وتوقعت في كل لحظة أن أسمع سؤالها له « هل عرفنتني ؟ » لكن تأكد لي انها المرة الاولى التي يلتقيان فيها . نكست رأسها وسارت بجوارى صامتة ، وتمثرت في حجر مديب ، لكنها لم تش ، ورفعت رأسها بعد لحظة لتتنظر الى الموسيقي ، وكان يتحدث أمامنا بمرح مع الكشافيين الآخرين ، وأحسست من نظرتها اضطرابها

ومعاناتها ، فقد كانت لهذه المرأة عينا تكلمان . وجملتنا مصاحبة الرفيق الجديد نسير اكثر مرحا ، وكان بعض ذلك يرجع الى لهجة الموسيقي الجنوبية الشجية التي يحكي بها فصمه ، ويرجع الباقى الى عيني الممرضة .

وحينما هبط الليل ، توقفنا عند معسكر قامته طليعة الحمالين نلجيس ، وكان الجيش قد غادره مساء .

وأفلق « تران » بقوة صيره في أشغال النار ، وأخذت ملامحنا تبدو أوضح فأوضح كلما ارتفع اللهب حول اللعبة الصفيحية المطلقة في غصن فوق اللهب .

أحضرت خوذته مملوءة بالماء فوضعتها على ثلاثة حجارة فوق النار . « هذا الماء لك يا مسي خوان .. ضمي فيه قدمك فيساعد على هبوط الورم . لانك بهذه الحالة لن تستطيعي متابعتنا غدا » .

دلكت قدمها المتورمة الحمراء ، وقالت معتدرة :

« انني أسبب لكم إزعاجا كبيرا » .

نظر إليها « دينه » بحق :

« انت لا تزعجينا على الإطلاق .. من يدري .. ربما نأتي اليك بعد أيام قليلة على نقالة » .

كان « توان » يجلس أمامي ناظرا الى النار .. ينقر على ركبته في إيقاع .. وشفتاه تتحركان كما لو كان يدندن بأغنية ، وكنت على وشك التحدث اليه ، حينما ألقى تران من الجانب الآخر بحصاة على قدمه :

« حسنا ايها الموسيقي ! غن بصوت مرتفع حتى نسمع جميعا » .

اتخذ « توان » أهبة الاستعداد ، ورفع رأسه ، وعلت وجهه ابتسامة لطيفة ، أنفجرت عنها غمزة على وجنته اليمنى ، وانضم الى الحلقة .

وفتحت الانسة « خوان » حقيبتها العسكرية ، واستخرجت منها بعض كعك الارز تقاسمته معنا . ولم يستطع « دينه » اخفاء شعوره بالافتباط فصاح :

« يا لها من مفاجأة لطيفة ! »

والتفتنا حول النار ، ولم تلبث رائحة شواء كعك الارز أن انتشرت في الهواء .

وانبعثت الانغام فأخذت تسري في الهواء ، ثم نخبو بعيدا في ظلام الليل مع الريح السارية .

كان يغني واقفا ، وبين يديه قيثارته القديمة ، وقدمه مسندة الى جذع شجرة مقطوع ، وظله يمتد خلفه على المر المر المؤدي الى الجدول .

غنى الحانا شعبية ، وغنى كثيرا من مؤلفاته ، من بينها اغنيتنا المفضلة « الكشاف » ، وظل يغنينا فترة طويلة ، وحينما انتهى من الفناء راح ينظر الى اللهب فترة واستغرق في التفكير :

« آه .. ها هي .. دعوني أغن لكم اغنية اخرى « جماعة الزميل أيجو » ، فلم أغننا منذ وقت طويل » .

وظللت أعجب ، لماذا يبدو مأخوذا بهذه الاغنية الى هذه الدرجة ، بينما راح يغني :

« في المنطقة المحنلة أعرف مراكيبا عجوزا من يستطيع أن يخبره أين ذهب جيشنا !؟

من يستطيع أن يخبره كيف حارب ابنه على الجبهة !؟

لقد مات أيجو وعيناه تتجهان الى الاعداء ووجنته ترقد على شاطئ النهر .... »

كان يغني بصوت هاس كمن يعترف لنا بسر ، ومست الكلمات قلبي كلمة بعد اخرى ، وأسرتنا الاغنية وجملتنا بعيدا ، وأمسكنا عن التنفس أمام هذا الإيقاع الرائع ، ولاحظت يدي « تران » الكبيرتين ترتعشان ، حتى « دينه » الذي أطلقت الطبيعة قلبه المرح ، أخذ فجأة وبدأ عليه الجد . أما الممرضة فقد كانت مشدودة الى الفناء ، تحمق في الموسيقي حريصة على الا فتوتها كلمة واحدة .

وحيثما وضع « تون » فيثارته جانبا ، لم يتحدث أحد خشية ضياع النغم الذي لا زال يطفو على الهواء . وتراقص انعكاس اللهب على عينيه المتألمتين اللتين سرعان ما اغرورقتا بالدموع .

كنت أعرف ان فرقة الرقص والغناء تتبع المحاربين في أصعب عملياتهم الحربية وفي أخطر المواقع ، ولقي أنان من أفرادها في هذا المسكر مصرعيهما ، أحدهما أثناء افتتاح موقع « ماندل » والآخر أثناء القتال للحيلولة دون امداد جنود الاعداء الذين كانوا يحاولون فتح طريق « كوبراي ماندل » وقدرت كم ضحيا في عملهما . وناكد لنا ان وراء هذه الاغنية سرا ، ورغم اننا كنا متحرقين لمعرفة ، لم يجزؤ أحد على السؤال .

تناول « تون » غلبة الماء الصفيحية التي قدمها له « تون » وشربها جرعة واحدة ، ثم نظر نحونا كمن أدرك ما يدور في خلدنا ، وأخذ يحكي :

كانت هذه الاغنية أيها الاصدقاء هي ما جعلني أقرر ان أصبح موسيقيا في الجيش . كتبها أخي الأكبر . ولو قابل احدكم أخي مرة لما نسيه أبدا . يقولون دائما أنني صورة منه ، ومع ذلك فانا لا أبدو شيئا بالنسبة له . كان كل انسان يحبه ، لانه كان الطيبة نفسها .

كان هو الذي يرضخ أولا في معاركنا صفارا . وحيثما جتدنا لنذهب الى الجنوب لم يكن أبي فلقا علي ، بل عليه . وصاح به : - حاول ان تكون أكثر يقظة .. وأكثر فاعلية .. كيف تستطيع ان تحارب وأنت بهذه الطيبة ؟!

ثم التفت أبي نحوي قائلا : - حاول ان تكون دائما بجوار أخيك ، واعتن به . فقلت مدميا :

- اذا لم يستطع الذهاب الى الجبهة فسيممل في مكتب .. لا تطلق يا أبي .

ولكنني مرضت في « كوانج نجاي » فاضطرت للبقاء في المستشفى ، وتبع أخي وحدته الى الجبهة ، ولم تصلني أخباره فظننته قد قتل .

وحيثما غادرت المستشفى خدمت في عدة وحدات : الكشافة .. المواصلات . ثم عدت عام ١٩٥٠ الى وحدة الكشافة ، وكنت في نفس القسم الذي يوجد به « تون » الآن ، واخترت في نهاية عام ١٩٥٠ - بعد تدريب سياسي - الى الفرقة الفنية ، وكان بهسده المناسبة أن ألفت اغنية الكشاف ، وفي أثناء التدريب ظننت ان في هذه الاغنية ضياعي ، فلم تكن تسرني فكرة العمل في مكتب ، وفكرت في ليالي العمليات الحربية حينما تلنقي كل فرقة بأخرى ، اتساءل العبور ، وقد يسأل سائل :

- الى أية فرقة تنتمون ؟ ولم يكن ينقص أحدا الفخر ليقول : - الكشافة .. الفرقة الهجومية .. ولكن حينما يقابل الجنود كتاب غير محاربة ، فمن السهل ان يصيح أحدهم :

« أهؤلاء أنتم يا حملة الافلام ؟! »

« أهؤلاء أنتم يا كتيبة الماندولين ؟! » وكان اليوم الذي حملت فيه حقبي العسكرية الى المركب السياسي أباس يوم في حياتي ، وأسعد يوم كذلك ، فهناك قابلت أخي ، وكان قد اختير للفرقة الفنية ، واغرورقت عينانا بالدموع .. أمسكتني أخي من كتفي وصاح : - لقد كبرت ! فصحكت وقلت :

- لكنك لا زلت شابا كما كنت دائما . وكان ذلك حقا . كان يبدو أصغر مني رغم انه يكبرني بعامين ، لقد تغير قليلا ، وفيما عدا بشرته التي لوحتها الشمس ، كانت عيناه الرقيقتان .. وابتسامته الهادئة التي لم تفارقها

أبدا .. وحديثه المقتصد .. كما كانت من قبل . وقلت في نفسي : لا غرو .. فقد ظل طوال هذه الفترة فسي مكتب ، ولم يعان الا قليلا .

ونظرت في حقييته العسكرية كعادتي السيئة كلما قابلت صديقا عزيزا ، فوجدت بها صندوقا أحمر .. فتحته ، فوجدت به نيشانين عسكريين من الدرجة الثانية والثالثة ، فسألته :

- هل هما لك ؟ - نعم . - لا بد انك حاربت كأسد . - متلك تماما .

لقد شارك أخي في عدة هجمات بطولية في الجنسوب . واغار في وضح النهار مع ثمانية جنود على مدينة « آها تراتج » ، وفي مرة أخرى نكر في هيبته امرأة وقتل ثلاثة جنود فرنسيين .. ولكنه حتى لي ذلك كله وكأنه شيء هادي .. وذهلته وسألته :

- ولكن لماذا أرسلت الى هنا؟ - أصبت في ذراعي اليسرى ، وبعد خروجي من المستشفى رشحت هنا .

ورفع تم فميصة فبدت ندبة كبيرة بطول عضلة الكتف .. فقد جرنه المعركة الى القتال يدا بيد .. وذكرت حينما كنا نتصارع صفارا ، كان من السهل علي أن أطرحه أرضا ، وكان حينذاك يخلص نفسه ويذهب الى مكان آخر .. لعمد اشتد أخي كالفولاذ في المعركة .. وزاد حبي واعجابي به .

ورغم سعادتي بلفانا ، لم أفلح في التكيف مع وظيفتي الجديدة ، فذهبت الى رئيس ادارة الثقافة والاعلام وطلبت اليه العودة الى وحدتي السابقة ، وباطبع لم يوافق .. ولهذا لا زلت في الفرقة الفنية . أما عن أخي فلم يشك ، بل أظهر حماسا لعمله الجديد ، وقال :

- ينبغي أن نذهب الى حيث يحتاجون الينا ، لا تشاكس . وضايقتني ذلك فقلت :

- انك تتحدث كما لو كنت كتابا . فنظر في عيني بعنق ، وانقلبت نظره الرقيقة المألوفة الى نظرة فاسية وصاح : - اذن فانت لم تتغير .

وظللت غير مقتنع حتى كانت هذه الحادثة : في ليلة لا قم فيها ولا نجوم ، كان على الجنود أن يعبروا نهرا في المنطقة المحتلة من « كوانج نام » ، وكنت وأخي في نفس المركب مع مجموعة من المحاربين ، ولم يفكر المراكبي المعجوز حتى في أن يرفع بنطاله ليخلص المركب الراسي في منطقة ضحلة . وحاول أحد الجنود أن يساعده فرفض قائلا :

- ابق مكانك .. احتفظ بقوتك .. لا زال عليك أن تسيير .. أستطيع أن أعدها بنفسي .

وانزلق المركب برفق على الماء ، فقفز المراكبي اليها وتناول المجذاف . وبدأ الطل يبلل ملابسنا ، وهبت ريح باردة ، وسعل المعجوز بشدة ، فوضع أخي فيثارته وحقيته في قاع المركب وقال :

- دعني أجدف .. يا جدي . فهز المعجوز رأسه وقال :

- انك لا تعرف النهر جيدا ، وإذا عاقبتنا منطقة ضحلة فسنعجز عن الخروج منها قبل الفجر .. ومسح ذلك فهذا عملي ، ولن أدع غيري يقوم به .

وترددت قبل أن أسأله :

- أليس في أسرتك من يحل محلك ؟ وكان علي أن أردد سؤالي ثلاث مرات قبل أن يجيب : - كانت زوجة ابني نحل محلي .. ولكن قتلها الفرنسيون في مطلع هذا العام .

وأخذ العجوز مرة أخرى يسعل سعالًا جافًا ، وكان مؤلمًا أن نسمع سعاله المتصدع الذي يمتد صدها عبر النهر ، وانقبض قلبي.. ورفع الجندي الجالس بجواري رأسه الذي كان يدفنه في حقيبتة ، ثم أخفضها من جديد .

لم يعرف أحد ماذا يقول ، وبدأ العجوز يتكلم وكأنه يتحدث إلى إنسان بعيد :

« بتي .. ألن تعود لتنتقم لزوجتك ؟ انهم هنا .. كان اليوم الثالث عشر في بداية شهر الشهر .. أنت تعرف .. كنت أغزل السلال في البيت .. وزوجتك تجمع أوراق التوت على شاطئ النهر ، وسمعت أحدا ينادي المراكبي من الشاطئ الآخر .. وظننت انهم جنود المقاومة جاءوا يعملون في المنطقة المحتلة .. وظلت فترة طويلة دون أن أسمع زوجة ابني تجيب .. ولكني سمعت آهة بدت لي غريبة .. ونزلت إلى المرسى لأرى ما يحدث ، وما كدت أصل حتى فوجئت بجندي . كانت زوجة ابني لا زالت واقفة بجسوار الشاطئ بين أشجار التوت دون أن تقول كلمة ، وكان أحدهم يتحدث إليها من خلف الشجيرات القريبة :

– استمري كانك تجمعين الأوراق .. عند أقل إشارة سأطلق الرصاص .

وفي النهر كان المركب في وسط الفدير ، يعمل بمجدافيه رجل قوي يردي « شورت » أسود ، بكل فوهه ، ليصل إلى الشاطئ الآخر ، وفهمت كل شيء من أول وهلة ، وكنت على وشك أن أرفع يدي لأعطي إشارة حينما اندفع الجندي نحوي ودفعتني خلف دغسل من أشجار « البامبو » ، ونظرت نحو زوجة ابني ، كانت تبسبسو مأخوذة بالموقف ، وكان عليها أن تصيح لتتحذر جنودنا وتحثهم على العودة .. ولكن ثلاثة بتنادق كانت مصوية إليها .. وعلى الشاطئ الآخر نزل ثلاثة جنود إلى حافة النهر يفسلون أقدامهم ، وكسدت أجن .. هل سيلقي هؤلاء الجنود بأنفسهم إلى القتل من أجل مركبي ؟ لقد كان المركب حتى الآن يعمل في خدمة المقاومة ، فهل علينا أن نجلس الآن ونراه قادما نحونا محملا بالجنود لقمة سائفة للاعداء ؟! وفجأة اندفعت زوجة ابني إلى الشاطئ صائحة :

– المدوق قادم في المركب .. لا تعرفوا !  
فقادر جنودنا الشاطئ بسرعة ، وأغمضت عيني حتى لا أرى زوجة ابني وهي تسقط .

كانت هناك تماما .. وأشار المراكبي العجوز إلى مجموعة من أشجار التوت عبر الشاطئ ..

وعاوده سعال شديد حاد ، وأمسك الجندي الجالس بجانبني يدي وارترجت ذراعه ، وما زال يدفن رأسه في حقيبتة .

وحينما وصلنا إلى المرسى ، قفز الجندي إلى الماء قبل أن يجد العجوز وقتنا للنزول وسحب المركب ، وصاح العجوز فجأة :

– « ايجو » ألسنت أنت ؟ ولكن .. نعم .. هو ذا أنت ..

واستمر الجندي في السير مشيحا بوجهه ، وسرعان ما اختفى خلف ستار من أشجار « البامبو » . وصاح العجوز في صوت متصدع اليم :

– لقد عرفتك .. هوذا أنت .. هوذا أنت يا ايجو .. انتقم لزوجتك ، يا بتي !..

\*\*\*

وفي الصباح التالي تلقيت أمرا بالانضمام إلى وحدة أخرى ، وطلب أخي أن يظل مع ايجو .

وعند عودته بعد أسبوع أخبرني ان جماعة من ثلاثة رجال بقيادة ايجو ، حاربوا حتى الرجل الأخير ليمنعوا تقدم الفرنسيين إلى « تام دين » وقد استمرت جماعته تحارب يوما كاملا ضد قوات تفوقها ، وضحت بنفسها تماما .

وظل أخي ثلاثة أيام لا يتام ليكتب أغنية « جماعة الزميل ايجو » وأسر لي بسر :

– انني أفكر أن أعود يوما إلى هذا المرسى لأخبر العجوز بما فعله ابنه .

ولم تكن الاغنية قد تمت بعد حينما تلقى الامر بالانضمام إلى الوحدة المنجحة لمهاجمة مركز « تو لوان » ، وكان لأخي سترة بيضاء كالتى أردنيها الآن ، ويحمل مثل هذا الفيشار ، وسألني :

– حدثني بصراحة ، هل أنت مقتنع الآن بملك الجديد ؟ ولم أشأ أن أكذب :

– ليس تماما ، لا زلت أريد العودة إلى وحدتي القديمة . فبدأ عليه قليل من الحزن وقال :

– كنت أعرف ذلك . ولذلك فانت لم تعط أفضل ما عندك ، رغم أنك أكثر مني مقدرة .

ولو كنت أعرف أنني أراه لآخر مرة ، لاجتته أجابة أخرى ، فبعد ثلاثة أيام ، علمت انه قتل بقبيلة ، وتسلمت من بين ممتلكاته المذكرة التي كتب فيها مؤلفاته ، ووجدت بها أغنية « جماعة الزميل ايجو » التي كان قد اتماها .. انسي دائما احتفظ ممسي بهذه المذكرة .

\*\*\*

أخرج « توان » من جيب قميصه مذكرة بهت غلافها الاصفر ، وافترينا لننظر إليها صفحة بعد أخرى ، وكانت هناك كلمات مشطوبة ومعاده ، وفي الصفحة الأخيرة كانت أغنية « جماعة الزميل ايجو » وسألست :

– هل سمع المراكبي العجوز هذه الاغنية ؟  
– ليس بعد أيها الزميل ، فقد كان علينا أن نعود من طريق آخر .. ولم سنح لنا الفرصة لمقابلة العجوز .. ولكن لا زال هناك شيء آخر أيها الزملاء ..

وقلب « توان » صفحة أخرى من المذكرة ، كان مكتوب عليها :

« اني المراكبي العجوز ، والى حبيبتى ذات العينين الغريبتين » .

– هل ترون أيها الزملاء ؟! ينبغي علي أيضا أن أعني هذه الاغنية لفتاة ذات عينين غريبتين . لم يتحدث إلي أخي عن قصه حبه ، كنت أظنه دائما لا يهتم إلا بعمله . لم يترك أي عنوان أو صفحة في مذكراته تدل عليها . ان العثور على المراكبي العجوز مرة أخرى لامر سهل ، ولكن كيف العثور على الفتاة ؟.. أنا واثق انني لن ألتقي بها .

وناوله « تران » جرعة ماء أخرى وقال :

– من يدري .. ربما كانت يوما من بين المستمعين فسي أحد العروض التي قدمتها ؟!

وعاد « دينه » إلى ابتسامته الساخرة قائلا :

– وربما تزوجت ؟!

فاوما « توان » : ربما .. ثم قال متأنرا :

– هذا لا يغير من الامر شيئا ، طالما أستطيع أن أعني لها الاغنية ، ان الشيء الوحيد الذي أخشاه ، ان تكون قد نسيست أخي تماما .

وحيث فقط رأيت الانسة « خوان » ترفع رأسها وقد غمرت عينيها الدموع :

– انكم غير عادلين .. جميعكم .. كيف تستطيع أن تنساه ؟ ثم التفتت إلى « توان » قائلة :

– حاول أن تعثر على العجوز ، وغن له الاغنية . أما الفتاة فقد استمعت إليها الليلة .

ولم تستطع أن تتمالك نفسها ، فاندفعت في التشيج . وحدثت فرقة في النار ، وتطارت عدة شرارات وتصاعدت في دوامة ، وحينما خبت لم يبق سوى بقعة متألقة من السماء لا زالت تلتهب ..

لم تكن شرارة .. فقد بزغ نجم .

ترجمة : محمد فكري  
موسكو